المرتكزات اللّسانية لنظريّة باختين الحواريّة
مطارحة في الأصول والمفاهيم

حمّد مرزوق
قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب واللّغات والفنون
جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس/ الجزائر

لم يطّلع الغرب على أعمال باختين إلاّ مطلع سبعينيّات القرن الماضي إذ لعبت تلك الأعمال دورا حاسما في تطوّر النّظريّة الأدبيّة واللّسانيّة. وذلك بإحداثها نقلة إجرائيّة بخصوص مسألة الكلام La parole. ففي الوقت الذي كان فيه التّحليل منصبّا حول بنيات الملفوظ (اللّسانيّ والأدبيّ)، بدأ الاهتمام تدريجيّا يتّجه صوب تحليل التّلفّظ. فبالإضافة إلى اكتشاف أفعال الكلام ساهم اكتشاف الحواريّة في هذه النّقلة التّطوّرية. وبذلك استطاع الحقل اللّغوي الإفادة من منجزات الحواريّة أثناء درسه النّقديّ للبنيوية الأدبيّة، التي تصوّرنت داخل المعطى اللّسانيّ متعلّقة بوهم المحايثة. فكانت الحواريّة فرصة لانعتاق النّص وانفتاحه على آفاقه الخارجيّة،غير تلك التي وسمت المشهد النّقديّ ما قبل البنيويّ. فساهمت بذلك الحواريّة في تجاوز رهانات البنيويّة المنغلقة من جهة، وفي التّخلّص من مجرّد عودة جوفاء إلى السياق.

Abstract

The western studies mainly in the field of literary criticism has not took in consideration the work of Bakhtin until the first year of 1970 in the last century
These work played a decisive role in the development of the literary and linguistic theory. They made an important transition or a radical change towards the speech issue. In that time, the studies were concerned with the structure of the linguistic and literary spoken and gradually with analysis of enunciation. In addition to the discovery of SPEECH ACTS, the discovery of DIALOGISM contributed to this transition.

The field of linguistic has benefit from the accomplishments of Dialogism through his critical study of the literary structuralism.

The Dialogism leaded to a new horizon. It made the text more open than what had characterized the critical studies before structuralism. In that way, the Dialogism has contributed in overcoming the difficulties that had been faced by the structuralism which was restricted in a simple way to the context.

ظهر مفهوم الحواريّة وعرف تطوّره ضمن التّحليل الألسني والأدبيّ على يد المنظّر الروسي ميخائيل باختين M. Bakhtine (1895-1975) ، الذي قدّم نظريّته بوصفها مؤطّرة لمجالات علميّة شتّى. ذلك أنّها تروم مقاربة كافّة أشكال الخطابات، من أدب ولغة وعلم جمال وأنتروبولوجيا وغيرها.

فلا غرْو أن يلفيَ متصفّح هذه النّظرية في مضانّها الغربيّة ارتكازها على جملة من المرجعيّات الفلسفيّة والإيديولوجيّة والابستيمولوجيّة. فقد أفاد باختين من هذا الثّراء المعرفيّ ليصقل أساس نظريّته بفضل تنوّع مشاربه العلميّة وزخمها الفلسفيّ واللّغويّ والنفسيّ والاجتماعيّ، مبلْورا

لنا أطاريحه بشأن المبدأ الحوار[1]، الذي غدا فضاءا واسعا لكثير من الأطر الفكريّة والتّوجهات الفلسفيّة المغذّية للعديد من المناهج والرؤى النّقديّة[2].

لقد أتيح لباختين أن يستعير من الفلسفة مبدأ فلسفيا قوامُه تلك النّظرة الخاصّة إلى الوجود بوصفه حوارا دائما مستمرّا عبر الزّمن. ومردّ ذلك أنّ كلّ شيء يتأتّى من خلال حضورٍ أوّليّ، يدعوه باختين بالنّموذج الأصليّ الذي يصهر باقي الأشياء في قوالب معادة الصّياغة عن طريق التّفاعل مع النّموذج الأصل، فتنشأ تبعا لذلك العلاقة الحواريّة مكرّسةً مبدأ محاكاة الآخر.

وبذلك استطاع باختين أن يتقاطع مع أبرز مبدأ من مبادئ الفلسفة الماركسية، وبخاصّة تلك المتعلّقة بالجانب السوسيولوجي[3] الذي ينظر إلى الحوار بوصفه محرّكا لأواصر الاتّصال الاجتماعيّ، والذي بدونه تغدو جميع الأنشطة الاجتماعيّة آيلة للرّتابة والخمول.

فإذا كان باختين قد استعار من الفلسفة مقولة حواريّة الكون والوجود مع الآخر، واستطاع أن يكون أوّل المحاولين[4] الإفادة من الفلسفة المادية الجدلية في بعدها السوسيولوجي، القائم على التّفاعل مع الآخر، فإنّ علم النّفس قد شكّل مرتكزا آخر من أصول نظريّته الحواريّة. ذلك أنّ باختين قد استلْهم منه تصوّرا خاصّا حول الإنسان بوصفه أنتروبولوجيا الغيريّة، وهو ما يفضي إلى ضرورة وجود هذا الآخر في بناء "الأنا". إذ يرى أنّه لا يمكن "للأنا" أن تدرك ذاتها في شكلها الخارجيّ دونما حاجة مطلقة لهذا "الآخر" الذي يضطلع بمهمّة خلق الشّخصيّة الخارجيّة المكتملة، والتي يتوقّف بناؤها عليه وحده[5].

وبذلك استخلص باختين حاجة الإنسان إلى "الآخر"من خلال ما طرحه لكان Lacan، الذي يشير إلى طور المرآة بوصفه لحظةً فارقة في حياة الرّضيع، الذي يبتهج حين يرى صورته لأوّل مرّة في المرآة، بمساعدة أحد والديه. فيبتهج لاكتشافه صورةٍ مبكّرة عن مظهره في كلّيته، وهو لا يكاد بعْدُ يعي فيزيولوجيّا هذه الكلّيّة. ثمّ طوّر فيما بعد لكان Lacan، طرحه بشأن طور المرآة[6] وذلك بإدخاله لفكرة دور الآخر.

من خلال كلّ ما سلف تمكّن باختين من التّأكيد على متانة العلاقة بين الإيديولوجيا، التي لا يمكن التّعرّف عليها إلاّ بواسطة الفعل الكلامي الذي ينتج عن تصادم فكرتين متعارضتين، وبين اللّغة بوصفها حقلا تتجلّى من خلاله مختلف أنماط التّواصل الإنسانيّ، فتغدو اللّغة بعلاماتها الحبْلى بشتّى وجهات النّظر والمشبعة بمختلف المواقف والدّلالات: مشكّلةً تعدّدا لغويّا وتنوّعا صوتيّا نتيجة تخلّيها عن شفافيتها، ونأْيها عن حيادها[7].

وعندها تبرز ضرورة إجراء "تحليل عميق وجاد للكلمة كدليل مجتمعي، حتّى يمكن فهم اشتغالها كأداة للوعي، وتستطيع الكلمة بفضل هذا الدّور الاستثنائيّ الذي تؤدّيه كأداة للوعي، أن تشتغل كعنصر أساسيّ مرافق لكلّ إبداع إيديولوجيّ.. إنّ الكلمة تصحب كلّ فعل إيديولوجيّ وتعلّق عليه".[8]

وننتهي إلى أنّ باختين ينظر إلى اللّغة بوصفها كاشفا عن الإيديولوجيا من جهة، وعاكسة لاغترابٍ بنّاء يعبّر عن حضور الآخر من خلال كلام الأنا. ففي الواقع أنّنا لا نشكّل لغتنا من أجل حاجاتنا الخاصّة، كوْننا نرث لسان الآخر وقد ترسّبت فيه كلماتُه مسجّلةً استعمالاته الفرديّة.

ونسجّل هنا أنّ باختين رغم إفادته من إرث دو سوسير، الذي يميّز بين اللّغة واللّسان من جهة، وبين اللّسان والكلام من جهة أخرى، إلاّ أنّه يعتقد أنّ الظاهرة اللّسانيّة لا يمكن دراستها بشكل جدّيّ إلاّ من خلال ما أسماه ب"علم عبر اللّسان" métalinguistique[9]، بوصفه علما يروم مقاربة النص وربط عناصره اللّسانية بالسّياق الذي أنتج فيه، من خلال ما يهدف إليه إثر مقاربته لجانب آخر من الظّاهرة اللغوية، والذي يقصد به حياة "الكلمة"، من منظور المبدأ الحواري الذي ينشأ عن هذه العلاقات التي لا تستأثر باهتمام الدّرس الألسنيّ في الغالب.

وبذلك يكون باختين قد تجاوز الطروحات اللّسانيّة، شكلانيّة كانت أم بنيويّة، فاتحا المجال أمام أفق رحب تُدرس فيه العلامة اللّغويّة من خلال تفاعلاتها مع الخطابات الأخرى.

وتكْمن خصوصيّة التّصوّر الباختينيّ أنّه يرفض مبدأ دوسوسير القائل بثبات وحدة الدّليل اللّسانيّ، إذ يراه جسرا ممدودا بين شخصين محدّدين اجتماعيّا، يتقاسمان هذا الدّليل بوصفه مكوّنا فاعلا من مكوّنات الكلام، يعتريه التّحويرُ ويطرأ عليه التّحوّل في المعنى عن طريق النّبرات والتّنغيمات الاجتماعيّة. فيغدو لساننا مكبّلا بشراك علاقات تؤكّد الطبيعة الاجتماعيّة "للكلمة".[10]

وفق هذا التّصوّر يميّز باختين بين نوعين من الحواريّة. يشكّل البعد اللّسانيّ نوعها الأوّل، كوْنه يتأتّى من معطيات لسانيّة تختصّ بجماعة ناطقة معيّنة. يؤكّد ذلك باختين حين يصرّح أنّه " لا يستطيع أيّ فرد من الجماعة المتكلّمة أن يجد كلماتٍ محايدةً، خالية من تطلّعات الآخر وتقييماته، وغير مكتسية بصوته. فهو يتلقّى الكلماتِ بواسطة صوتِ الآخر، لتبقى ممتلئة ومعبّأة يستعملها في أسيقتها المختلفة، حاملةً لسياق هذا الآخر ونواياه.

وتاليا فإنّ قصده لا يمكنه إلاّ أن يلفي كلمات مكتسية بالآخر."[11] لينتهي باختين إلى التّأكيد على وجود حواريّة مبنيّة للمجهول داخل اللّسان المشترك.

أمّا النّوع الثّاني من هذه الحواريّة فيراه باختين ممثّلا ببعد حواري آخر، يختصّ بالكلام (الخطاب)[12]، ذلك أنّ خطاب المتكّلم يصدر دوما عن الآخر، لأنّه- بحسب باختين- حين تشكّله فهو يأخذ هذا الآخر بعين الاعتبار والحسبان.

ويعني ذلك أنّ قواعد النّحو وكلمات المعجم التي يوظّفها المتكلّم تراعي بشكل جليٍّ المستوى اللّغوي للمخاطَب. وكذلك الشّأْوُ بالنّسبة للبنيات الحجاجيّة التّي تشكّل خطاب المتكلّم، كوْنها تستجيب مسْبقا للاعتراضات المتوقّعة من طرف المخاطَب.

وتاليا فإنّ خطاب المتكلّم، وفق حواريّة باختين، يغدو أقلّ صدقا في التّعبير عن ذاتيّته من حوارٍ دائمٍ متجدّدٍ مع الآخر. وينتهي باختين إلى ملاحظة أنّ هذا النّوع من الحواريّة يتّسم أساسا ببروز الذّات المتكلّمة Le sujet parlant .

وبذلك يقدّم باختين نظريّته الحواريّة بوصفها تختصّ بالخطاب في شكله العام داخل سيرورة التبادل اللفظي، وتعني وفقه، كافة طرائق وأشكال حضور خطاب الآخر داخل الخطاب.غير أنّ حضور خطاب الآخر مدعاة لأنْ يأخذ أشكالا متعدّدة قد لا تتعلّق جميعُها بمبدأ الحواريّة، لكنها تفتح الباب أمام الحديث عن "الخطاب المنقول".

ومن ثمّة نلفي باختين يميّز بين الاستشهاد الصّريح بكلام الآخر، بوصفه خطابا منقولا على شكل أسلوبٍ مباشرٍ، وبين الحالات "الحقيقيّة" للحواريّة.

ففي الحين الذي يستثني فيه باختين "الاقتباس الصّريح" من دائرة الحواريّة، يعلّل ذلك بكوْن خطاب الآخر(المقتَبس) يَظهر بشكلٍ معزول داخل الخطاب، بواسطة علامات التنصيص مثلا. كما أنّ خطاب الآخر في هذه الحالة يكون دالاّ على فعل كلاميّ مُسندٍ إلى متكلّم آخر. وتاليا يغدو كلام الآخر- داخل الخطاب- ذاتيّا بشكل كلّيّ، وهو لا يشوب "صوت" الذّات المتكلّمة ولا يؤثّر فيه.

وينتهي باختين إلى عدّ الخطاب "المنقول على شكل الأسلوب المباشر" خطابا مونولوجيا بامتياز. ثمّ يصف باختين جميع أشكال الخطاب المنقول الأخرى بأنّها تعبّر عن مستويات مختلفة لدرجات الحواريّة "الحقيقيّة". مبتدءا بالخطاب "المنقول على شكل الأسلوب غير المباشر"، أين يكون الكلام المنطوق للآخر منقولا بدقّة، وأقرب إلى ترجمة محتوى الفعل الكلاميّ دون التّقيّد الصّارم بشكل هذا الفعل. فنقول عندئذ أنّ هناك "مزيجا من الأصوات"، وهو ما يفضي إلى وجود الحواريّة.

ثمّ يصل باختين إلى الخطاب المنقول على شكل "الأسلوب غير المباشر الحر" فيعدّه شكلا من أشكال الحواريّة، بوصفه نقلا لخطاب غير منطوق، ولا أثر عندها لوجود فعل كلاميّ يشير إلى نقل الخطاب. وإنّما غاية ما في الأمر حديثٌ عن نقلٍ لنوايا الآخر المبطَّنة نقلا يفسح المجال للحديث عن حواريّة لا نكاد نلْفيها إلاّ في الخطاب الأدبيّ، وبخاصّة في خطاب التّخييل، كما تذهب إلى ذلك المنظّرة كات هامبيرغر Kate Hamburger، بِعَدِّها لهذا النّوع من الأساليب خاصّيةً بارزة داخل خطاب التّخييل.[13]

وما نلاحظه من خلال طرح باختين بعيدا عن فكرة الحواريّة المبنيّة للمجهول (التي تسم حواريّة اللّسان Langue)، فإنّ الحواريّة الخطابيّة تمتدّ بشكل واسع لتشمل كافّة أشكال الخطاب.

الهوامش:

[1]Voir : Todorov, Tzvetan. Mikhaïl Bakhtine, le principe dialogique. Paris: Seuil. (1981).

[2] أنظر: نجاة عرب الشعبة، حوارية باختين: دراسة في المرجعيّات والمفردات، مجلة تواصل في اللغات والثقافة والآداب،عدد31، سبتمبر2012.

[3] Voir : Marina Yaguello, Introduction, In : Mikhaïl Bakhtine, Marxisme et philosophie de langage, Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, Traduit du russe et présenté par Marina Yaguello, les éditions de minuit, 1977, p.12.

[4] أنظر: عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، منشورات اتّحاد كتاب العرب، دمشق، 2008،ص 269.

[5]Voir : Todorov, Tzvetan. Mikhaïl Bakhtine, le principe dialogique, p.147.

[6] طور المرآة لدى " لكان"، ويقصد به تلك اللّحظة الأولى التي يتماهى فيها الطّفل لأوّل مرّة مع صورته في المرآة، مطوّرا بذلك وعيه بذاته، كمكوّن لل"أنا"، بوصفها مكانا للاستعراف الخاطئ.

[7] أنظر: عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي،م س، صص.270-271

[8] ميخائيل باختين، الماركسيّة وفلسفة اللّغة، تر. محمّد البكري ويمنى العيد، دار توبقال للنّشر، الدّار البيضاء، ط1، د.ت، صص.29-30.

[9] Voir: Wladimir Krysinski, Bakhtine et la question de l'idiologie, Erudit, Etudes Françaises. Vol.20.n°1.1984, pp.21 http://id.erudit.org/iderudit/036813ar

.

[10] Voir : Marina Yaguello, Introduction, In : Mikhaïl Bakhtine, Marxisme et philosophie de langage, p.15.

[11] Todorov, Tzvetan. Mikhaïl Bakhtine, le principe dialogique. Paris: Seuil. (1981), p.77.

[12] يرى كثير من الباحثين أن الظّهور الفعليّ للّسانيّات النّصيّة يعود إلى منتصف القرن الماضي، حين يربطونه بالتّعريف الذي قدّمه ياريس للخطاب سنة 1952. غير أنّ الحقيقة، كما يقول جون ميشال آدام أنّ ميخائيل باختين قبل هذا التّاريخ بكثير قد أشار صراحة إلى القصور والعجز الذي باتت تعانيه اللّسانيّات الكلاسيكيّة، من جرّاء عدم تجاوزها للجملة. أنظر مثلا: Jean Michel Adam, Elément de la linguistique textuel .1970, p .7

[13] Voir :Laurent Jenny, Dialogisme et polyphonie, Méthodes et problèmes, Ed. Département de Français moderne, Université de Genève**, 2003.**